دعوة الإنسان العليا

أو القصد الإلهي من إبداع الإنسان

بحسب تعليم آباء الكنيسة



دعوة الإنسان العليا

أو القصد الإلهي من إبداع الإنسان

بحسب تعليم آباء الكنيسة

دار مجلة مرقس

كتاب: دعوة الإنسان العليا
أو القصد الإلهي من إبداع الإنسان
ترجمة وإعداد: رهبان دير القديس أنبا مقار.
مقالات مترجمة عن كتاب:
SOURCES: Les Mystiques Chrétiens des Origines
(منابع الروحانية المسيحية في أصولها الأولى). للفيلسوف الفرنسي المعاصر
والعالم الآبائي أوليفييه كليمانت Olivier Clément
الناشر: دار مجلة مرقس.
الطبعة الأولى: ١٩٩٤
مطبعة دير القديس أنبا مقار – وادي النطرون. ص.ب ٢٧٨٠ القاهرة

٥٠ (أ) شارع شبرا ص.ب. ٣١ شبرا القاهرة.
مقالات سبق نشرها في مجلة مرقس أعداد من شهر سبتمبر إلى ديسمبر ١٩٨٩

المحتويات

١ – الشركة في حياة الله

□✱■✱□

+ دعوة الإنسان العليا هي: أن يحقق الإنسان كمال بشريته بأن يصير إلهاً بالنعمة، أي أن يكون مشاركاً بملء كيانه في حياة الله، جاعلاً من بشريته هيكلاً للمجد الإلهي، المجد الذي يطرح الموت خارجاً، بل بالأحرى يحوِّله إلى ما هو ضدّه؛ إلى حياة دائمة غير قابلة للفناء.

+ الإنسان صورة الله، ينبغي أن يبلغ إلى التماثل با لله. هذا التماثل هو في آن واحد، التلاقي والمشاركة، التوافق والإنسجام التام مع الله في أقانيمه العاملة في خلقة الإنسان وفي عمل تجديد الإنسان أيضاً بالتجسد وعمل الفداء.

[الإنسان كائنٌ حي أرضي، نال نعمة خاصة ليصير إلهاً.](١)

القديس باسيليوس الكبير

[كل كائن روحي، قد أُعِدَّ ليكون هيكلاً لله، وجُبل ليقبل في

(١) *Paroles de S. Basile de Césarée rapportée par Grègoire de Nazianze dans sa Louange de Basile le Grande*, Discours 43,48 (PG36,560)

طبيعته بمجد الله.](٢)

العلاّمة أوريجانوس

[هكذا كان التدبير الإلهي في خلقة الإنسان وجَعْله على صورة الله وشَبَهه غير المخلوق: الآب يدبِّر، والابن ينفذ ويشكِّل، والروح القدس يغذي وينمي الإنسان ليتقدم تدريجياً.](٣)

القديس إيرينيئوس

+ قصة خلق الإنسان هذه أخذت بُعداً مأساوياً «بالسقوط» و«الفداء»، ولكن تقدُّمها الأساسي نحو غايتها المنشودة لم يتوقف أو يتغير.

[كان لا بد للإنسان أن يمر بهذه المراحل حتى يبلغ إلى الهدف النهائي من خلقته: فأولاً هو قد جُبِل؛ ثم نما وكبر حتى بلغ سن الرشد؛ ثم تناسل وتكاثر؛ وإذ تكاثر تقوّى؛ وإذ قَوِيَ اعتزّ وتكرَّم؛ وبعد أن تكرم رأى ربَّه. لأن... رؤية الله تؤدي إلى الخلاص من الموت والانعتاق من الفساد؛ وهذه الحالة تُعبِّر عن بلوغ الإنسان إلى الاتحاد بالله.](٤)

القديس إيرينيئوس

+ الإنسان كائن يحيا في نطاق يقع بين المنظور وغير المنظور، بين

---

(٢) ORIGÈNE, *Commentaire sur l'Evangile selon Saint Matthieu*, 16,23 (PG13,1453)

(٣) IRÉNÉE DE LYON: *Contre les Hérésies* IV,38,3 (SC n° 100 bis, p.954-956)

(٤) IRÉNÉE DE LYON: *Contre les Hérésies* IV,38,3 (SC n° 100 bis, p.956)

عالم المادة والجسد وبين عالم الروح والروحانيات، في حالة تجسُّد، كوسيط بين الخليقة والخالق. النزوع نحو هذه الغاية موجود أيضاً حتى في الأديان والمذاهب غير الكتابية (أي التي هي خارج الكتاب المقدس)، كما في الآداب المعاصرة، وفي العلوم، وفي الفنون. ولكن في هذه كلها نجد هذا النزوع محدوداً وقاصراً: فإما هي مستغرقة في الإلهيات، وإما مؤكِّدة على الجانب البشري (المادي والطبيعي) ومُعْرِضَة تماماً عن الجانب الروحي. أما «تجسد كلمة الله» فقد كشف الرؤية وافتتح الطريق أمام الإنسان ليرى مصيره المُلهم ذا القوة الخلاّقة.

[الفنان الأعظم المبدع للكون قد صمم (في فكره الإلهي) وأخرج للوجود كائناً حيّاً يتميز بطبيعتين: إحداهما مرئية والأخرى لامرئية. فالله قد خلق الإنسان مشكّلاً جسده من المادة الهيولية التي قد سبق فأوجدها من قبل، ثم بعث فيه الحياة بروحه القدوس... وهكذا برز إلى الوجود – على نوع ما – كعالم كوني جديد، صغير وعظيم في نفس الوقت، ثم أقامه الله على الأرض ليكون سيداً عليها... هذا الكائن الحي جُبِلَ من طبيعتين حتى إذا ما تأمل بعمق في المنظور يدرك من خلاله غير المنظور، وهكذا يملك على كل خلائق الأرض، وفي نفس الوقت يكون مطيعاً لأوامر السماء.

إن هذا المخلوق العجيب يجمع في كيانه، في نفس الوقت، بين واقع أرضي وحقيقة سماوية، بين ما هو غير ثابت وما هو خالد، بين المرئي وغير المرئي. هو وَسَطٌ بين العظمة والعدم،

فهو: جسد وروح... كائن حيواني أرضي ولكنه ينزع ويتطلع إلى وطن أفضل، إنه يبلغ غايته ويكتمل سره عندما يصير متمثّلاً با لله، بتوافقه التلقائي مع المشيئة الإلهية وارتضائه بها تماماً بنية خالصة.](٥)

القديس غريغوريوس النزينزي



+ الإنسان مدعو لأن يحمل الكون كله في كيانه وأن يضع الخليقة بكاملها في وعيه ويشملها بحبه، حتى ينوب عنها في تقديم صلاة شكره السرية (القلبية) لله. ولكي يحددها بعبقريته الخاصة ومهارته معطياً «لكل مخلوق حي اسمه» كما يقول سفر التكوين. إنه «كَونٌ صغير وإله صغير» (كما يقول القديس غريغوريوس النيصي). أي أنه كائن مادي روحي في نفس الوقت، أرضي وسماوي.

+ مكسيموس المعترف (أحد آباء الكنيسة البيزنطية بعد القرن الخامس) يتعمق كُنه الإنسان، فيفضل أن يصفه بأنه: «Macrocosme = (كون كبير)»، لأنه يفوق كل عظمة الكون المنظور، من حيث أنه أُبدع على صورة الله. ولأن الكائن البشري يفوق ويكبر سائر الخلائق الأخرى المنظورة؛ لذا وُضع على عاتقه مسئولية العناية بها (من حيوان ونبات وجماد) حتى يساعدها على استمرارية الحياة.

+ الإنسان في الواقع – وبحسب أقوى تعبير عند القديس غريغوريوس النزينزي – يحيا «بنَسْمَةٍ منبعثة من اللاهوت»، تحتضنه

---

(٥) GRÉGOIRE DE NAZIANZE: *Discours 45, pour la pâque,7* (PG36,850)

وتنميه وتقوده وتمنعه من أن يلتصق بالأرض التي جُبل منها. «ماهيَّة الإنسان تفوق للغاية كل حدود منطقية بشرية»، كما كان يقول الفيلسوف بسكال. لا شيء أرضي، مهما كان، يقدر بأي حال أن يجعله مكتفياً وراضياً أو متوقفاً عند حدٍّ.

+ لم يكف الآباء عن أن يمجدوا هذه الرفعة الإلهية التي بلغ إليها الإنسان، وهذا «العمق اللانهائي» لكيانه البشري الذي صار هيكلاً مقدساً لحلول الله. فالإنسان هو على صورة الله، في أنه يفوق كل تعريف على مثال الله نفسه.

[الصورة لا تُدعى صورة حقيقية إلاَّ إذا حازت كل صفات مثالها... والسمة المميزة للاهوت أنه غير ممكن إدراكه أو فهمه بالعقل: كذلك صورته أيضاً ينبغي أن تكون مُعَبِّرة عنه. أما إذا أمكن استيعاب جوهر الصورة في حين أن مثالها يفوق كل إدراك، فهذا الاختلاف يلغي واقع الصورة نفسها وحقيقتها. ولكن نحن لا يمكننا أن نبلغ إلى تحديد طبيعة بُعدنا الروحي، الذي هو على صورة خالقنا تماماً... وهذا هو ما نحمله من السمة غير المدرَكة التي للاهوت عن طريق السر الحالّ فينا.] (٦)

القديس غريغوريوس النيصي



+ يمكن بالمثل أن يقال إن الله بالتجسد صار موطناً دائماً للإنسان،

---

(٦) GRÉGOIRE DE NYSSE, *De la Création de l'Homme*, 11 (PG 44,155)

فصار وجود الإنسان بالتالي يفوق كل حدوده في هذه الحياة المنظورة: سواء الطبيعية أو الإجتماعية أو النفسية، وذلك لأنه هو أيضاً أصبح موضعاً لسُكنى الله، الذي صار «يوجد ويحيا ويتحرك» في رَحْبِه اللانهائي...

[إعلم أنك عالَمٌ كوني آخر، كونٌ مصغّر، وأنه يوجد فيك شمس وقمر بل ونجوم أيضاً، ولو لم يكن الأمر هكذا... ما قال الرب لتلاميذه: "أنتم نور العالم" (مت٥:١٤). فهل تتردد بعد بأن تصدق أن فيك شمساً وقمراً، حينما يُقال لك إنك "نور العالم"؟ أتود أن أسوق لك كلمة إلهية أخرى حتى لا تستصغر نفسك أو تستهين بهذه الحقيقة؟

هذا الكون (البشري الصغير) له سيد عظيم يحكمه بل ويقيم فيه، هو الله الكلي القدرة، كما أعلن هو نفسه على فم أنبيائه: «أما أملأ أنا السموات والأرض، يقول الرب؟» (إر٢٣:٢٤)

فاسمع ما يقوله الله الكلي القدرة عنك - أعني عن البشر جميعاً: «إني سأسكن في وسطهم، وأسير معهم» (٢كو٦:١٦). ثم يضيف هذا الذي يعنيك بالأكثر: «وأكون لهم أباً، وهم سيكونون لي بنين وبنات، يقول الرب.» (٢كو٦:١٨)](٧)

العلاّمة الإسكندري أوريجانوس

[كلمة الله تناول جزءاً صغيراً من الأرض التي أبرأها حديثاً،

---

(٧) ORIGÉNE: *Cinquième Homélie sur Lévitique,2 (GCS6,336-337)*

وصاغ بيديه الأبديتين جُبْلتنا البشرية وبث فيها الحياة: لأن النسمة التي بعثها في الإنسان هي انبثاق من لاهوته المستتر اللامنظور. وهكذا من التراب ومن نفخة القدير أُبدع الإنسان على صورة الحي الأبدي... فبصفتي من الأرض أجد نفسي مرتبطاً بالحياة الحاضرة، ولكن لأنني أحمل أيضاً في كياني قبساً من الألوهية، لذا أجد قلبي منشغلاً بالتوق إلى الحياة الأبدية الآتية.](٨)

القديس غريغوريوس النزينزي

[اعرفْ مقدار المجد الذي كرَّمك به بارئُك فوق كل الخليقة. فالسماء لم تُجبل على صورة الله، ولا الشمس بعظمتها ولا النجوم ببهائها، ولا شيء مما يمكن أن يُرى في سائر الخلائق. ولكن أنت وحدك (كإنسان) الذي أُبْدِعْتَ على صورة الحق الذي يفوق كل إدراك عقل، وعلى مماثلة بهائه الذي لا يبلى، على طابع لاهوته الحقيقي؛ على أن ترث فرح مجده وتنعم بنوره إلى الأبد. لأنك عندما تتطلع إليه ستصير على ما هو عليه.. لا يوجد شيء بين الكائنات الأخرى مهما عظم يمكن أن يُقارن بهذا السمو الذي بلغتَ أنت إليه. لأن الله الكلي القدرة الذي يقيس السماء بشبره والأرض والبحر هما في قبضة يده، ومع أنه كلي العظمة بهذا المقدار حتى إنه يحمل الخليقة كلها ويحتويها على كفه، تنازل هو إليك وحل في قلبك، فأمكنك أن تحتويه في داخلك، وارتضى أن يسكن فيه دون أن ينحصر أو

---

(٨) GRÉGOIRE DE NAZIANZE: *Poèmes Dogmatiques,8* (PG37,452)

يتضـايق لسـريانه في كيـانك، فهـو الـذي قـال: «سأسـكن فيهـم وأسير بينهـم.» (٢كـو٦:١٦)][٩]

القديس غريغوريوس النيصي

(٩) GRÉGOIRE DE NYSSE, *Deuxième Homélie sur la Cantique des Cantiques* (PG 44,765)

٢ – الشركة في الثالوث الأقدس

□✱■✱□

+ إن قُوى الإنسان العليا مؤهَّلة لأن تستقبل فضائل النور الإلهي وتعكسه على من حولها. القدرات البشرية مَدْعوَّة لأن تُستَثْمر في «المواهب الإلهية». أما هذه الممارسات فهي تُعتبر بحد ذاتها شركةً مع الثالوث الأقدس الفاعل في كل عمل صالح، وصورةً معبرة عن حضوره الإلهي. بَيْدَ أن الأمر الأساسي الذي تعمله قوة انطباع صورة الله فينا هو أنها تبثُّ في كياننا «الإحساس بالخلود». إنها تخلق في الإنسان قوة الامتداد نحو ما يفوقه، وتستنهض فيه «الحنين للأبدية». وبهذا يصبح الإنسان أعظم من العالم الذي وُلد فيه، هذا العالم الذي يريد أن يستحوز عليه. وبقوة انطباع صورة الله فينا يؤكد الإنسان أيضاً حريته الجوهرية. وكون الإنسان على صورة الله هذا يعني في الأساس أن له وجوداً شخصياً حراً قائماً بذاته.

[إذا كان الإنسان قد دُعي للحياة ليكون شريكاً في «الطبيعة الإلهية»، فلا بد أن يكون تكوينه أساساً مما يؤهِّله لهذه المشاركة... كان من الضروري أن شيئاً من المماثلة الإلهية يُمزج بالطبيعة البشرية حتى تجعله هذه العلاقة يميل إلى ما تمتُّ إليه... من أجل هذا وُهب الإنسان الحياة والبصيرة والحكمة

وكل السجايا الجديرة باللاهوت (أي بالطبيعة الإلهية)، حتى يتوق كلٌّ من هذه الفضائل إلى مثيله في الله. ولأن الأبدية ملازمة للاهوتية على الإطلاق، كان لا مندوحة من أن لا تُحرم منها طبيعتنا، بل أن تُزوَّد بعنصر الخلود. وبفضل هذه الهبة الممنوحة، نجدها مشدودة دائماً إلى ما يفوق قامتها، يحدوها دائماً الحنين إلى الأبدية.

هذا ما تومئ إليه رواية خلقة الإنسان في عبارة واحدة جامعة شاملة، عندما تقول إن "الإنسان خُلق على صورة الله". (تك١: ٢٦)][(١)

القديس غريغوريوس النيصي

[الإنسان حرٌّ منذ البداية، لأن الحرية هي من صميم طبيعة الله، ولأن الإنسان خُلق على مثال الله.][(٢)

القديس إيرينيئوس

+ النعمة تُخلّص، ولكن بتلاقي المحبة، أي باستجابة الإنسان لمحبة الله. إنها تحيط بالإنسان، كل إنسان، كالهواء الجوي، متأهبة دائماً أن تدخل إليه من خلال أصغر منفذ في الإرادة. بَيْدَ أن الحرية الملوكية التي للإيمان هي وحدها التي تُحسن استخدام هذا المنفذ، فيصبح مدخلاً فعالاً واستسلاماً طوعياً مُبدعاً للحياة الإلهية. إنه من أجل خلاص البشرية جمعاء قد أُفرز البعض، فليس الفرد المؤمن في انعزاله،

---

(١) GRÉGOIRE DE NYSSE, *Grande Catéchèse*, 5 (PG 45,21-24)

(٢) IRÉNÉE DE LYON: *Contre les Hérésies* IV,37,4 (SC n° 100 bis, p.932)

ولكن في اتحاده مع الآخرين في ذات الإيمان الواحد، بل كل البشر معاً هم الذين يُكوِّنون حقيقة قوام صورة الله. فما نراه هو أن هذا الـ«آدم الشمولي»، وهذا «الإنسان الفرد» قد تفتت، ونحن (أفراداً وجماعات) لا نكف عن تحطيمه، أما المسيح «آدم الآخير» فهو يعيد تجديد بناء قوام الإنسان، سواء في فرديته أو تعدديته، ليكون على صورة الثالوث الأقدس الواحد في الجوهر الإلهي.

+ إن قول الله «نعمل الإنسان على صورتنا»، يعني البشرية في وحدتها الكيانية العامة.

[إنها كل الطبيعة البشرية في شمولها ممتدَّة من البداية إلى النهاية، هي التي تكوِّن قوام الصورة التي على مثال الكائن الأعظم.](٣)

[القول بأنه يوجد "بشر عديدون" هو تعبير جرت به عادة الأسلوب العامي... نعم يوجد هناك كثرة تشارك في نفس الطبيعة البشرية الواحدة... ولكن خلالها جميعاً الإنسان هو واحد.](٤)

القديس غريغوريوس النيصي

+ من جهة أخرى، الإنسان ككل - نفساً وجسداً - هو الذي جُبِلَ على صورة الله. فالجسد قد أُعطي أن يكون هو التعبير عن الوجود الشخصي الفردي لنفس الإنسان عندما تقبَّل هو أيضاً النفخة المحيية. ومع الكتاب المقدس يؤكد الآباء أن الكيان البشري لا يقوم إلا

---

(٣) GRÉGOIRE DE NYSSE, *De la Création de l'Homme*, 16 (PG 44,183)

(٤) GRÉGOIRE DE NYSSE, *Qu'il n'y a pas trois Dieux* (PG 45,117)

على وحدة النفس مع الجسد. المرئي من الإنسان لم يكن ليوجد إلاّ ليعبر عن اللامرئي فيه. لذلك كان القديسون يشعّون ببهاء ينبعث من قلب يتميز بالبصيرة الثاقبة والمحبة الشديدة. الجسد هو أيضاً مدعوٌّ للقيامة والحياة الأبدية. والآباء الرسوليون في القرن الثاني شددوا كثيراً في تعليمهم على رفعة منزلة الجسد هذه. فالمسيحية لديهم تبشر بقيامة الجسد، لذا فهي تسبق وتُعِدُّه منذ الآن لهذه الحقيقة، التي برهنتها وأكدتها قيامة المسيح و«صعوده» هذا الذي رفع الجسد الأرضي وعمّقه في الله.

+ من أجل هذا كانت مسيحية القرون الأولى منشغلة أساساً لا بخلود النفس – الذي لا ريب فيه والمُسلَّم به أصلاً – بل بقيامة الأجساد والكون بأسره، والكون هو بمثابة جسد البشرية. فكل حياة الكنيسة على الأرض هي بمثابة «معمل تفريخ للقيامة» (كما يقول العالم اللاهوتي المعاصر ديمتري ستانيلوي). إنها الكنيسة تبث روح القيامة الفائقة في البشرية جمعاء وفي الكون كله.

[ليس في جزء من طبيعة الإنسان، توجد صورة الله، وإنما في الطبيعة برُمَّتها تتمثل الصورة الإلهية.](٥)

القديس غريغوريوس النيصي

[أرواح بلا أجساد لا يمكن أبداً أن تكون بشراً روحيين. ولكن واقعنا بكامله، أعني به كياننا المركّب من روح وجسد، حينما

---

(٥) GRÉGOIRE DE NYSSE, *De la Création de l'Homme* (PG 44,185)

يتقبل روح الله، فهو يصير إنساناً روحياً.](٦)

القديس إيرينيئوس

[هل النفس أياً كانت – هي وحدها – التي تحدد قوام الإنسان؟ كلاّ، فالنفس ما هي إلاّ جانب من الإنسان. وهل الجسد هو الذي يتميز به الإنسان؟ كلاّ، فهو ليس إلاّ جزءاً من الإنسان. إذاً، فمن حيث أن هذين العنصرين لا يمكن لأيٌ منهما على حدةٍ بأي وجه من الوجوه أن يُكوّن الإنسان، فمن ثم يلزم أن نقول إن الوحدة المكوّنه من اتحاد الاثنين معاً هي الجديرة بأن تُسمى إنساناً. ويقيناً أن الإنسان ككل وليس جزءٌ منه هو الذي دعاه الله إلى الحياة وإلى القيامة (قيامة الجسد).

إن الإنسان بكُلّيته هو الذي دُعي، أي بالنفس والجسد أيضاً. وإذا كان الاثنان يكوّنان اتحاداً ممتنع الانفصال فكيف نعتقد أن أحدهما يخلص (ويفوز بالحياة الأبدية) دون الآخر؟ وإذ كنا قد قبلنا مرة إمكانية تعرُّف الجسد على مَوْلد (روحي) جديد، فكيف يُعقل أن تنعم النفس وحدها بالخلاص الأبدي دون الجسد؟](٧)

[إذا كان صحيحاً أن الجسد هو بلا أدنى جدوى، فلماذا أبرأه المسيح؟ بل ولماذا بالأخص بلغ إلى حد أن أُقيم من بين الأموات؟ وماذا كان القصد من هذا؟ أليس ذلك لكي يبين لنا

---

(٦) IRÉNÉE DE LYON: *Contre les Hérésies* V,8,2 (SC n° 153 p.96)

(٧) JUSTIN: Fragment 8 (in H. Lassiat, L'Actualité de la Catéchèse Apostolique, Sisteron, 1979 p.173)

كيف أن القيامة (للجسد) حقيقة لا بدَّ أن تحدث؟ ومن الواضح أنها كانت لكليهما (الجسد والنفس) معاً. وإذا كانت القيامة ليست إلا روحية، كان ينبغي أن الرب يشير بقيامته هو إلى ذلك، فيكون الجسد مُضجعاً في جانب والنفس تبدو قائمة بدونه. ولكنه لم يفعل مثل هذا، بل إنه قام بجسده مثبتاً أن الوعد بالحياة الأبدية يخص هذا أيضاً. ولماذا قام بجسده المصلوب، إذا كان لا يبرهن بذلك على حقيقة قيامة الجسد؟ وإذ أراد أن يقنع تلاميذه الذين رفضوا أن يقبلوا أنه قام حقاً بجسده... سمح لهم أن يلمسوه ويتحققوا هم أنه هو، وأنه ما زال في جسده. ثم بعد ذلك، في مرَّة أخرى، طلب منهم أن يأكل معهم... فأكل عسلاً وسمكاً. وهكذا وضع اليقين أمامهم أن القيامة ستتم لجسد بشريتنا هذا الذي نحيا به على الأرض. ثم إذ أراد أيضاً أن يؤكد لنا أن موطننا الدائم سيكون في السماء، وأنه ليس مستحيلاً على الجسد أن ينطلق إلى هناك؛ سمح لتلاميذه «أن يروه مرتفعاً إلى السماء.» (مر١٦: ١٩)][٨]

الفيلسوف الشهيد يوستين

+ يشترك آباء الكنيسة الروحيون الأوائل جميعاً (انطلاقاً من الكتاب المقدس) في رؤيتهم أن القلب هو المركز الأساسي في حياة الإنسان المسيحي. هذا "القلب" وإن كان يأخذ نفس التسمية التي يحملها هذا العضو الطبيعي من الجسد ولكن دون أن يتشابه معه بكُلِّيته، فهو موضع معرفة المحبة حيث يستجمع الإنسان كل قواه

---

(٨) JUSTIN: Fragment 9 (in H. Lassiat, op. cit. p.156,157)

وأفكاره وأحاسيسه، وفي الوقت نفسه ينفتح على الآخرين (إن كان هذا الآخر هو الله أو الإنسان). هذا «القلب الروحاني» هو منفتح دائماً على الروح القدس وهو يستقبل منه النور الإلهي ليبثّه في الجسد... لكي يُمكّنه من أن يصير روحانياً، بينما بالمقابل نجد أن أعلى مستوى من الذكاء إذا ما انغلق أمام السر الإلهي يصير جسدانياً.

[النعمة تنقش في قلب أبناء النور شرائع الروح. لذلك، لا ينبغي أن يستقوا إيمانهم فقط من الكتب المقدسة المدونة بمداد، لأن نعمة الله تكتب أيضاً سُنَنَ الروح والأسرار السماوية على لوحي القلب. فالقلب في الواقع يقود ويسوس الجسد كلّه. وحالما تستحوذ النعمة على مراعي القلب، حينئذ تملك على كل الأعضاء والأفكار. لأن فيه تقوم الروح وكل خواطر النفس وآمالها. ومن خلاله تسري النعمة في كل أعضاء الجسد.](٩)

القديس مقاريوس الكبير

S. MACAIRE DE L'EGYPTE: *Quanzième Homélie, 20* (PG 34,589) (٩)

٣ – الشركة في النصرة النهائية

□✱■✱□

+ قصة «سقوط الإنسان» في سفر التكوين تحظى عند بعض الآباء بتفسير غاية في العمق. فـ«شجرة الحياة» كانت شجرة التأمل وإمكانية معرفة العالم من خلال الله. والإنسان لم يكن ليقدر أن يقترب منها، إلا بعد إعداد طويل، وإلا احترق من وَهَج النور الإلهي، إذا دخل إليه سواء في حالة من عدم الإدراك الطفولي (المفهوم المُحبب لدى القديس إيرينيئوس)، أو في موقف مطمع أناني لحب المعرفة لاستهلاك العالم بشراسة بدلاً من مراعاته وإعطائه. كان لا بدَّ له من النضوج ليبلغ الإنسان إلى الوعي الروحي الكامل بتجرد قلبي حر، وبإيمان ورجاء وطيد واثق في محبة الله شخصياً... من جهة ما يعطيه من وصايا وتحذيرات هي لخيره وحياته حتى لا يخدعه عدو الخير مرة أخرى فيما بعد.

+ أراد الإنسان أن «يستحوز على الإلهيات بدون الله». أما الله فقد أقصاه عن شجرة الحياة حتى يُنجيه من وهم التألُّه ومن «عبادة الذات»، مما كان سيعني في الواقع جحيماً لا خلاص منه... حيث كان الموت هو عاقبة هذا الانحراف، ولكنه كان أيضاً علاجاً للإنسان إذ جعله يدرك محدوديته، وفي الوقت نفسه فتح أمامه باب النعمة التي

صار يكنى عنها بـ«أقمصة الجلد»، بحسب رواية سفر التكوين، تلك الأقمصة التي ألبسها الله للإنسان الساقط، وهذه كانت تشير في الوقت نفسه إلى الحياة المخفية وراء الموت، (لأن الأقمصة كانت من جلد حيوان ميت ولكنها تستر داخلها جسد كائن حي يحمل صورة الله)... لأنه كما يقول القديس إيرينيئوس: «السقوط» حجب صورة الله في الإنسان، ولكنه لم يلاشِها بأي وجه من الوجوه.

+ رواية «السقوط» هي في الواقع تشير إلى حقيقة فعلية وحياة أصيلة عاشها الإنسان في بداية خلقته تفوق قدراتنا الحالية في المعرفة، حيث كانت الأحوال الزمنية والمكانية والمادية تختلف تماماً عما هي عليه اليوم (ومثل تلك الحالة لا نقدر أن ندركها ونحسها إلاَّ في بشرية متجلية في المسيح). وما نسميه بالتطور ليس هو إلاَّ افتقاداً من جهة الحكمة الإلهية، واسترداداً رحيماً لهذه الخليقة الساقطة...

+ «السقوط» مازال يحدث في الطبيعة البشرية، كذلك الأعمال الكبرى لأحداث تاريخ الخلاص لا تزال حتى الآن سارية المفعول. فكلمة الله المتجسد لم يكفّ عن أن يقهر الموت بالموت. ويولِّد من عَالم مُفتَّت حياة روحية كاملة. فالصليب والقيامة ما انفكا يعملان في صميم الكون. حتى إن تجسد الكلمة وآلامه ما زالا يُخرجان من هذه الحياة الممتزجة بالموت، من هذه الحياة المغلوبة والمقهورة دائماً، حياةً ممتزجة بالأبدية حيث فيها يُدعى الإنسان للمشاركة في النصرة الحاسمة النهائية.

[الله وضع الإنسان في الفردوس. وأياً كان موضع هذا الفردوس، فقد منحه فيه الحرية، حتى تكون سعادته مطلقة

فيحس وكأنه صاحبٌ لهذا المكان الذي أُنعم به عليه. ثم عُهد إليه بأن يعتني بالنباتات الدائمة، وربما يُكنى بها عن الأفكار الصالحة في الإلهيات... وكتدريب لحريته (على اختيار الأفضل لحياته) أعطاه ناموساً في صورة وصية: الأشجار التي يمكنه أن يقطف ثمارها وتلك التي لا ينبغي أن يمد يده إليها. وهذه كانت شجرة المعرفة.

والله لم يغرسها في الأصل لضرر الإنسان، لأن تلك، في رأيي، كانت شجرة التأمل الذي لا يقدر أن يقف على أسرارها، دونما خطورة، إلاَّ أولئك الذين بلغ استعدادهم الروحي إلى حد الكمال الكافي.

وعلى النقيض، لا يمكن أن تكون هذه الشجرة للنفوس الجسورة غير المتهذبة روحياً والتي تسود عليها الشهوة الحيوانية الجامحة، إلاَّ مصدر شؤم، تماماً كما أن الطعام القوي (أو الصلد) ضارٌ بالأطفال الصغار الذين هم ما زالوا في حاجة إلى اللبن. ولكن بحسد إبليس... ويالحسرة ضعفي المتخاذل! وهو نفسه الذي كان عليه أبوانا الأولان - قد غُلِبَ الإنسان الأول من ضعفه وسقط من مرتبته... فحُرم من شجرة الحياة ومن الفردوس، بل ومن الله نفسه، واكتسى بقمصان الجلد التي كانت تشير في الوقت نفسه أنه بدأ يحس بكثافة جسد بشريته المتمرد والقابل للموت. ولأول مرة يعي عيب نفسه وقباحته وعدم استحقاقه فيحاول أن يتوارى من الله. فحُكم عليه بالموت أيضاً... حتى لا يبقى الشر فيه مؤبَّداً. وهكذا كان قصاص المحبة الإلهية للبشرية (الساقطة)، وهذه هي طريقة الله

في العقاب أنها دائماً لخير الإنسان.][1]

القديس غريغوريوس النزينزي

[كذلك لا يمكن أن يكون الله مسئولاً عن الشر، لأنه قد خَلق ما له كيان ووجود حقيقي، و لم يخلق العدم (لأن الشر هو عدم الخير)، فهو – تعالى – الذي أوجد حاسة البصر لا عدم الرؤية... وهذا دون أن يخضع الإنسان لإرادته المطلقة قسراً باجتذابه نحو الخير رغماً عنه كمادة عادمة الحياة. كما إذا ما توهج النور بلمعان ناصع جداً... فأغلق الإنسان بمحض إرادته إرادة بصره، بإرخاء جفنيه، فهنا لا يمكننا أن نقول إن الشمس مسئولة عن عدم رؤيته.][2]

القديس غريغوريوس النيصي

[كان الله قادراً أن يعطي الكمال للإنسان منذ نشأته، لأن ذلك كان في إمكان الله، ولكن الإنسان كان قاصراً عن بلوغه واستيعابه لأنه كان ما يزال بعد صبياً (في إدراكه).][3]

القديس إيرينيئوس

[إنه في هذا الأمر الأساسي يختلف الله تماماً عن الإنسان: الله خالقٌ والإنسان مخلوق. فالخالق يبقى دائماً كائناً كما هو، بينما المخلوق يتخذ بالضرورة بداية، ثم ينمو إلى حالة وسط، بعدها

---

(١) GRÉGOIRE DE NAZIANZE, *Discours 45, sur la Pâque* (PG 36,850)

(٢) GRÉGOIRE DE NYSSE, *Grande Catéchèse,* 7 (PG 45,32)

(٣) IRÉNÉE DE LYON: *Contre les Hérésies* IV,38,1 (SC n° 100 bis, p.946)

يبلغ إلى كمال النضوج...

الإنسان جُبل على النمو (في الحياة الروحية) والتقدم نحو الله. فبقدر ما يبقى الله دائماً كما هو، بقدر ما يبقى الإنسان قائماً في الله متقدماً دائماً نحو الله.][٤]

القديس إيرينيئوس

[كيف (تريد) أن تكون إلهاً وأنت لم تصر بعد إنساناً (ناضجاً)؟ وكيف تكون قد بلغت إلى الكمال، وأنت ما زلت بعد في بداية خلقتك؟][٥]

[هذه هي العلة التي لأجلها طرد الله الإنسان من الفردوس، وأبعده عن شجرة الحياة. لقد تصرف معه هكذا رأفة به حتى لا يبقى الإنسان دائماً حليف التعدي، ولكي لا تظل الخطيئة التي أمسك فيها مُلازمة له أبداً، ولا يظل الشر يفتُّ في عضد الإنسان بلا توقف فلا يكون له شفاء. لذا أمسكه (الله) وهو في تعديه، بإدخاله الموت حائلاً ليوقف ديمومته في التمادي... مُحدداً له أجلاً باضمحلال الجسد الذي أُخذ من الأرض، ولكي إذا ما أمكن للإنسان أن «يموت عن الخطيئة» (رو٦:٢) يبدأ يوماً ما في أن يحيا لله.][٦]

القديس إيرينيئوس

---

(٤) IRÉNÉE DE LYON: *Contre les Hérésies* IV,11,2 (p.500)

(٥) IRÉNÉE DE LYON: *Contre les Hérésies* IV,39,2 (p.964)

(٦) -IRÉNÉE DE LYON: *Contre les Hérésies* III,23,6 (SC n° 211 bis, p.460 62)

٤ – الشركة في المجد الإلهي

□✱■✱□

+ قيامة المسيح تفتح أمام الإنسان طريق المحبة التي هي أقوى من الموت، فصورة الله قد استعادت قوتها، وأصبح الموت بذلك عبوراً للحياة الأبدية، واسترد الإنسان مرة أخرى بنويّته لله، وحظي بـ«نور الآب»، وأتاه المجد الإلهي، وذلك من خلال حضور المسيح ببشريته اللانهائية. وهكذا صار تنازل الله واتضاعه طريقاً سهلاً لعلو الإنسان وارتقائه إلى المجد الإلهي.

[لنَعُدْ بالذاكرة (إلى ما قبل التجسد) ونتمعن في غالبية الوسائط التي استخدمها الله لإصلاح الإنسان مما أصابه من ضرر وتفاقم في الإثم نتيجة تعديه، فقد أمَّنه الله أولاً بالوصية وبالوعد، ثم أعطاه الشريعة (جملة وتفصيلاً)، وأرسل له الأنبياء، وزوَّده بالخيرات الوفيرة. ولما تفاقمت شروره، هدده بالعقاب، فأنزل عليه ماء الطوفان ونيران الصواعق، وبعد ذلك أنذره بالحروب. فمنَّ عليه بالنصرة مرة وتركه للهزيمة مرة أخرى، وأخافه بعلامات خطيرة تحدث في جَلَد السماء، وفي الهواء، وفي البر وفي البحر، وبتهديدات من أفراد ومن أمم، وبانقلابات غير متوقَّعة، قاصداً بكل هذه إخماد الشر وملاشاته. ولكن الإنسان

كان أخيراً في حاجة ماسة إلى دواء أشد فعالية ليشفيه من مساوئه الكثيرة التي استفحلت... والتي كان آخرها، بل وعلى رأسها وأشدها شراً، عبادته للأوثان التي قدمت للمخلوقات العبادة الواجبة واللائقة بالخالق وحده.

هذه الشرور استلزمت مُنقذاً قديراً، لا عيب فيه، لكي يقاومها ويُنهي عليها. هذا هو «كلمة الله» نفسه، الأزلي الأبدي، غير المُدرَك بالحواس البشرية، من ذات جوهر الآب، والنور المولود من النور، منبع الحياة والخلود، والصورة الحية المضاهية تماماً والمعبِّرة في كل شيء عن الله الآب؛ غاية مَرام وعلة وجود الإنسان. إنه يأتي لمن جُبل على صورته الخاصة، بل ويلبس جسده ونفسه الناطقة ليُخلِّص الاثنين: الجسد والنفس كليهما معاً، مطهراً ومصححاً مَنْ تكوَّن على مثاله. لقد قدم لنا يد المعونة كإله، ولكن في هيئة البشرية، متحداً بها في ذات الكيان الواحد.

أواه! الكائن بذاته الذي لا يتغير يُخضع نفسه للصيرورة؛ وغير المخلوق يولد، واللامحدود ينحصر فيما بين اللامادية الإلهية والجسد المادي للبشر. صاحب الخيرات يتخذ صورة مسكنتي... لكيما يغنيني بلاهوته... ما هذا السر الذي يحيطني (كإنسان)؟ أنعم الرب عليَّ بالصورة الإلهية ولم أعرف أن أصونها؛ فيتخذ الله شكل بشريتي ليخلِّص هذه الصورة ويمنح الخلود للجسد. إنه يهبنا عهداً جديداً يفوق عجباً بما لا يقاس

ذلك العهد الأول.][(١)]

القديس غريغوريوس النزينزي

[ربنا «الحامل كل الأشياء بكلمة قدرته» (عب١:٣) أتى إلينا في هذه الأزمنة الأخيرة (في هيئة بشرية) لا بحسب ما اقتدر هو، بل بكيفما قدرنا نحن أن نحتمل رؤيته. أما هو في الحقيقة فكان يمكنه أن يجيء إلينا في مجده الفائق التعبير، لكننا نحن لم يكن في طوقنا بعد أن نحتمل عظم بهاء مجده الإلهي، إذ كنا ما زلنا بعد أطفالاً، لذا أُعطينا خبز الله الكامل (النازل من السماء) كما في شكل لبن.

هكذا كان مجيئه إلينا كإنسان، حتى إذ نغتذي من ثديي نعمة تجسده ونتعود بهذه الرضاعة، مع النمو قليلاً قليلاً، أن نأكل ونشرب كلمة الله، نقدر أن نصون في أنفسنا "خبز الخلود" الذي هو روح الآب.][(٢)]

القديس إيرينيئوس

[ابن الله صار إنساناً ليصير الإنسان ابناً لله.][(٣)]

القديس إيرينيئوس

---

(١) GRÉGOIRE DE NAZIANZE, *Discours 45, sur la Pâque, 9* (PG 36,851,852)

(٢) IRÉNÉE DE LYON: *Contre les Hérésies* IV,38,1 (SC n 100 bis, p.946-98)

(٣) IRÉNÉE DE LYON: *Contre les Hérésies* III,10,2 (SC n° 211 p.118); 16,3 (p.298); 19,1 (p.374) V, préf. (SC n° 153, p.1)

[كلمة الله تجسد... ليبيد الموت ويُحيي الإنسان.](٤)

القديس إيرينيئوس

+ في الواقع، إنه في المسيح أصبح الإنسان منذ الآن فصاعداً، مُعَدًّا لتقبُّل الروح القدس الذي هو قوة القيامة.

[الروح القدس نزل على ابن الله الذي صار أيضاً ابناً للإنسان، وإذ استقر عليه وتآلف معه، حلَّ في الجنس البشري، وسُرَّ أن يتعايش مع الناس.](٥)

القديس إيرينيئوس

+ كما أن الروح القدس قائم في الابن منذ الأزل، وهو الذي يقوم بالمسحة المسيَّانية للابن الآتي في الجسد، فهو أيضاً يستقر على الكنيسة جسد المسيح السري. الروح القدس يمسح بالمثل كل من يطلبون أن يحيوا في المسيح بمعرفة كاملة ووعي روحي، هؤلاء الذين يصيرون «مُسحَاء» على الأرض، الذين بعد أن نالوا معرفة الخلاص يُدعَوْن ويُفرزون لكي يكرزوا به للعالم أجمع.

[المصابيح المنيرة التي تفوق الحصر تُوقد من نفس اللهب، أي أن كلها تشتعل وتنير بفاعلية ذات الجوهر الواحد. كذلك المسيحيون فإنهم يضيئون (كأنوار في العالم) من تأثير فعل ذات النور الإلهي (نور العالم)، ابن الله. فمصابيحهم الموقدة هي

IRÉNÉE DE LYON: *Démonstration de la prédication apostolique,* 37 (٤) (PO 12,687)

IRÉNÉE DE LYON: *Contre les Hérésies* III,17,1 (SC n° 211 p.330) (٥)

كائنة في أعماق قلبهم، وهي تضيء بسبب حضوره فيهم، في غضون عبورهم في أرض الغربة، تماماً بنفس القدر الذي به يتألق هو ببهائه فيهم. ألم يَقُل الروح القدس: «من أجل ذلك مسحك الله بدهن الابتهاج» (مز٤٥:٨)؟ لقد دُعي «مسيحاً» لأنه إذ تقبَّل مسحة نفس الدهن، نقدر نحن أيضاً أن نُدعى «مسحاء» لكوننا نحوز نفس الطبيعة ونُكوِّن معه نفس الجسد. وقد عبَّر الرسول عن هذا تماماً عندما كتب قائلاً: «الذي يُقدِّس والذين يتقدسون هم كلاهما من واحد (أي يكوِّنون كلاً واحداً.)» (عب٢:١١)][(٦)

القديس مقاريوس الكبير

+ وهكذا باتحاد الروح القدس مع حريتنا نقدر أن نرتقي من «الصورة» إلى «المثال أو التماثل». هذا «التماثل أو المشابهة» لا تتمثل إلاَّ في قوة القيامة العامة، وفي الحياة الأبدية الفائقة عن كل وصف، وفي شركة القديسين حول المائدة السماوية التي يُدعى إليها المخلَّصون، حيث يبلغ المؤمنون هناك غاية مطلبهم، حينما يتجلى الله بمجده ويُستعلن فينا، فيصير «الكل في الكل» و«الكل في كل واحد». فالمثال (الذي هو تكميل «الصورة») إنما يتم ويكمل بعد نهاية هذه الحياة الدنيا وبدء الحياة الأخرى في السماء. ولكنه يتحقق جزئياً الآن متطلعاً بعين الرجاء إلى بلوغ اكتمال ملئه في سيادة الله الكاملة على الحياة.

---

(٦) S. MACAIRE DE L'EGYPTE, *Grande Lettre* (PG 34,772)

[(على صورة الله ومثاله جُبل الإنسان): أما الصورة فقد نال الإنسان كرامتها منذ البداية؛ ولكن المثال قد استُبقي ليكون قمة الكمال (الروحي) الذي ينبغي أن يصل إليه... والقديس يوحنا الرسول يشير أيضاً إلى هذه الحقيقة بأشد وضوح وبتعبيرات عجيبة للغاية عندما يقول: «يا أولادي نحن لا نعلم بعد ما سنكون، ولكن إذا أُظهر لنا، حينئذ سنكون مثله.» (١يو٣:٢)

وفي الإنجيل يومئ الرب إلى هذا "المثال" لخير آتٍ أو بالأحرى وعلى وجه التحديد كنعمة سنحظى بها بواسطته، عندما يطلب من الآب من أجل تلاميذه قائلاً: «أيها الآب أريد أنه حيث أكون أنا، يكونون هم أيضاً معي» (يو١٧:٢٤)؛ «كما أنت وأنا واحد، ليكونوا هم واحداً فينا.» (يو١٧:٢١)

في هذا الكلام يمكن أن يُلاحظ أن هذا المثال يرقى، وكأنه ينمو بنوع ما حتى يصير وَحدة (روحية مع الله)، فاتحاً لنا باب الرجاء لبلوغ الكمال حيث المصير النهائي والغاية العليا لكل شيء، حينما سيكون الله الكل في الكل.](٧)

العلاّمة أوريجانوس

---

(٧) ORIGÈNE, *Des Principes*, III,6,1 (GCS 5,280,281)

تُطلب من:

دار مجلة مرقس

القاهرة: ٥٠ «أ» شارع شبرا ــ ت ٧٧٠٦١٤

الإسكندرية: ١٣ شارع الشهداء ــ المنشية ــ ت ٨٠٨٦٣٧



الثمن ٧٠ قرشاً